

الفصل السادس

قصة الغرائق

عود مهاجري الحبشة - الغرائق العلا - تمسك المستشرقين بقصتها - أسانيدهم في ذلك - ضعف هذه الأسانيد - القصة ظاهرة الكذب ينفيها التحييص العلمى.

عود مهاجري الحبشة:

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب. وعلم هؤلاء المهاجرون ما حدث على أثر إسلامه من رجوع قريش عن إيذائها محمدًا ﷺ ومن اتبعه، فعاد كثير منهم في رواية، وعادوا كلهم في رواية أخرى إلى مكة. فلما بلغوها رأوا قريشًا عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى الإمعان في عداوتهم أشد مما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل، فعاد إلى الحبشة من عاد، ودخل مكة من دخل مستخفيًا أو بجوار. ويقال: إن الذين عادوا استصحبوا معهم عددًا آخر من المسلمين أقاموا بالحبشة إلى ما بعد الهجرة وإلى حين استتباب الأمر للمسلمين بالمدينة.

الغرائق العلا:

أتى داع حفز مسلمي الحبشة إلى العودة بعد ثلاثة أشهر من مقامهم بها؟ هنا يرد حديث الغرائق الذى أورده ابن سعد في طبقاته الكبرى والطبرى في تاريخ الرسل والملوك، كما أورده كثيرون من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة، والذى أخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلا. وحديث الغرائق أن محمدًا لما رأى تجنب قريش إيأاه وأذاهم أصحابه تمنى فقال: ليته لا ينزل على شيء ينفرهم منى، وقارب قومهم ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوماً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾^(١). فقرأ بعد ذلك: تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن لترجى. ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد في آخرها. وهنالك سجد القوم جميعاً لم يتخلف منهم أحد. وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبي، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحبى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده. أما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك. وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم. وفشا أمر ذلك في الناس حتى بلغ الحبشة؛ فقال المسلمون بها: عشائرتنا أحب إلينا، وخرجوا راجعين. فلما كانوا دون مكة بساعة

(١) آيتا ١٩ و ٢٠.

من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم، فقالوا: ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملاء، ثم ارتد عنها فعاد لشتهم آلهتهم فعادوا له بالشر. وأمر المسلمون ما يصنعون، فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبرا فدخلوا مكة. وإنما ارتد محمد ﷺ عن ذكر آلهة قريش بالخير، في مختلف الروايات التي أثبتت هذا الخبر، لأنه كبر عليه قول قريش: «أما إذ جعلت لآلهتنا نصيبا فنحن معك»، ولأنه جلس في بيته، حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبي عليه سورة النجم، فقال جبريل أوجنتك بهاتين الكلمتين؟! - مشيرا إلى «تلك الغرائق العلاء، وإن شفاعتهن لترجى». قال محمد ﷺ: قلت على الله ما لم يقل! ثم أوحى الله إليه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِيَنَّ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كَذَبْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾^(١). وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم، وعادت قريش لماواته وإيذاء أصحابه.

تهافت حديث الغرائق:

وهذا حديث الغرائق، رواه غير واحد من كتاب السيرة، وأشار إليه غير واحد من المفسرين، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلا. وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمهيص. وهو بعد حديث ينقض ما لكل نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربه. فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين: ولذلك لم يتردد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنه من وضع الزنادقة.

حجج مؤيديه:

ولكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تسويغه فاستندوا إلى الآيات: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾، وإلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا إِذَا تَعَنَّى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخِ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(٢).

ويفسر بعضهم كلمة «تعنَّى» في الآية بمعنى قرأ، ويفسرها آخرون بمعنى الأمانة المعروفة. ويذهب هؤلاء وأولئك، ويتابعهم المستشرقون، إلى أن النبي بلغ منه أذى المشركين أصحابه؛ إذ كانوا يقتلون بعضهم ويُلْقَوْنَ بعضاً في الصحراء يُلْقَهُمْ لظى الشمس المحرقة، وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا ببلال، حتى اضطر إلى الإذن لهم في الهجرة إلى الحبشة. كما بلغ منه جفاء قومه إيَّاه وإعراضهم عنه. ولما كان حريصاً على إسلامهم ونجاتهم من عبادة الأصنام، تقرب إليهم وتلا سورة النجم وأضاف

(١) سورة الإسراء الآيات من ٧٣ إلى ٧٥.

(٢) سورة الحج آيتا ٥٢ و ٥٣.

إليها حكاية الغرائق، فلما سجد سجدوا معه، وأظهروا له الميل لاتباعه ما دام قد جعل لأهلهم نصيباً مع الله.

ويضيف سير ولیم مویر إلى هذه الرواية، التي وردت في بعض كتب السيرة وكتب التفسير، حجة يراها قاطعة بصحة حديث الغرائق. ذلك أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم إليها غير ثلاثة أشهر، أجارهم النجاشي أثناءها، وأحسن جوارهم. فلو لم يكن قد ترامى إليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لما دفعهم دافع إلى العود حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائرتهم. وأنى يكون صلح بين محمد ﷺ وقريش إذ لم يسع محمد ﷺ إليه، وقد كان في مكة أقل نفراً وأضعف قوة، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعذيبهم إياهم!

دفع هذه الحجج - أسباب عود المهاجرين من الحبشة:

١ - إسلام عمر:

هذه هي الحجج التي يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرائق، وهي حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص. وتبدأ بدفع حجة المستشرق مویر؛ فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم إلى العود إلى مكة سببان: أولهما أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل. وقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربها من قبلها، لم يخف إسلامه ولم يستتر، بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ويقاثلهم في سبيله. ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسلمهم إلى شعاب مكة بقيمون الصلاة بعيدين عن أذى قريش، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه. هنالك أيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا على من تدور دائرتها. فقد أسلم من قبائل قريش وبيوتاتها رجال تتور لقتل أي واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه. فلا مفر إذاً من الالتجاء في محاربة محمد ﷺ إلى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر. وإلى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة، هادنت المسلمين فلم تل أحدًا منهم بأذى وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين إلى الحبشة، ودعاهم إلى التفكير في العود إلى مكة.

٢ - ثورة الحبشة:

وربما تردّدوا في هذا العود لو لم يكن السبب الثاني الذي ثبت عزمهم؛ ذلك أن الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشي، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجهت إليه. ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر الله النجاشي على خصومه؛ لكنهم لم يكونوا ليشاركوا في هذه الثورة وهم أجانب، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل.

أما وقد ترامت إليهم أنباء الهدنة بين محمد وقريش، هدنة أنجبت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهلبيهم؛ وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم. على أنهم ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قد انتحرت ما تصنع بمحمد وأصحابه، واتفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقداً فيه على مقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامة؛ فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم. وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين، ورجع الذين عادوا من الحبشة، وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم. وقد وجدوا هذه المرة عنتاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة.

ليس الصلح الذى يشير إليه المستشرق موير، هو إذا الذى دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحبشة؛ إنما دعاهم هذه الهدنة التى حدثت على إثر إسلام عمر وحماسته فى تأييد دين الله. فتأييد حديث الغرائيق إذا بحجة الصلح تأييد غير ناهض.

الاحتجاج بالآيات مقلوب:

أما احتجاج المحتجين من كتاب السيرة والمفسرين بالآيات: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ و﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ فهو احتجاج أشد تهافتاً من حجة السير موير ويكفى أن نذكر من الآيات الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ لنرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى فى أمانة الرسول حتى لقد كان يركن إليهم شيئاً قليلاً فقد ثبتته الله فلم يفعل، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات. وإذا فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب. فقصة الغرائيق تجرى بأن محمداً ركن إلى قريش بالفعل. وأن قريشاً فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل. والآيات هنا تفيد أن الله ثبتته فلم يفعل. فإذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت هذه الآيات موضعاً غير مسألة الغرائيق، رأيت أن الاحتجاج بها فى مسألة تتناهى مع عصمة الرسل فى تبليغ رسالاتهم، وتتناهى مع تاريخ محمد كله، احتجاج متهافت، بل احتجاج سقيم.

أما الآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾ فلا صلة لها بحديث الغرائيق البتة، فضلاً عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ويجعله فتنة للذين فى قلوبهم مرض والنقاسية قلوبهم، ويحكم الله آياته والله عليم حكيم.

تهافت القصة علمياً وتعدد الروايات فيها:

وندع هذا إلى تمحيص القصة التمحيص العلمى الذى يثبت عدم صحتها. وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها، فقد رويت، كما سبق القول، على أنها: تلك الغرائيق العلاء وإن شفاعتهن لترجى. ورواها بعضهم: «الغرائقة العلاء إن شفاعتهن ترجى». وروى آخرون: «إن

شفاعتهم ترتجي» دون ذكر الغرائقة أو الغرائيق. وفي رواية رابعة: «وإنها لهى الغرائيق العلاء» وفي رواية خامسة: «وإنهن لهن الغرائيق العلاء. وإن شفاعتهم لهى التى ترتجي» وقد وردت فى بعض كتب الحديث روايات أخرى غير هذه الروايات الخمس. وهذا التعدد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع، وأنه من وضع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد رسالات ربه.

سياق سورة النجم ياباها:

ودليل آخر أقوى وأقطع؛ ذلك سياق سورة النجم وعدم احتمالها لمسألة الغرائيق. فالسياق يجرى بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى. أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى. إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾^(١).

وهذا السياق صريح فى أن اللات والعزى أسماء سَمَّاهَا المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. فكيف يحتمل أن يجرى السياق بما يأتى: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. تِلْكَ الغرائيق العلاء. إن شفاعتهن ترتجي. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى. إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ ما أنزل الله بها من سلطان» إن فى هذا السياق من الفساد والاضطراب والتناقض، ومن مدح اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وذمها فى أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان، ولا تبقى معه شبهة فى أن حديث الغرائيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم، وصدقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل المنطقى.

الحجة اللغوية:

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ محمد عبده حين كتب يفتد قصة الغرائيق، تلك أن وصف العرب لأهلهم بأنها الغرائيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغريق على أنه اسم لطائر مائى أسود أو أبيض، والشاب الأبيض الجميل. ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب.

صدق محمد ﷺ بأبى صحة القصة:

بقيت حجة قاطعة، نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرائيق هذه من حياة محمد ﷺ نفسه؛

فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط، حتى سُمي الأمين ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. وكان صدقه أمراً مسلماً به عند الناس جميعاً، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعته: «أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني؟» فكان جوابهم: «نعم! أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط». فالرجل الذي عُرف بالصدق في صلاته بالناس منذ نعومة أظفاره إلى كهولته كيف يصدق إنسان أنه يقول على ربه ما لم يقل، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه! هذا أمر مستحيل، يُدرك استحالة الذين درسوا هذه النفوس القويّة الممتازة التي تعرف الصلابة في الحق ولا تداجي فيه لأئى اعتبار. وكيف ترى يقول محمد: لو وضعت قريش الشمس في يمينه والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل، ثم يقول على الله ما لم يوح إليه، ويقول له لينقض به أساس الدين الذي بعثه الله به هدى وبشرى للعالمين!

ومتى رجع إلى قريش ليعمد آلهتهم؟ بعد عشر سنوات أو نحوها من بعته، وبعد أن احتمل هو وأصحابه في سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل، وبعد أن أعز الله الإسلام بحمزة وعمر، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوة بمكة، ويمتد خبرهم إلى بلاد العرب كلها وإلى الحبشة وإلى مختلف نواحي العالم. إن القول بذلك حديث خرافة وأكذوبة مجموجة. ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاهاها، فأرادوا سترها بقولهم: إن محمداً ما كاد يسمع كلام قريش إذ جعل لآلهتهم نصيباً في الشفاعة حتى كبر ذلك عليه، وحتى رجع إلى الله تائباً أول ما أمسى ببيته وجاءه جبريل فيه. لكن هذا السرّ أحرى أن يفضحها. فما دام الأمر قد كبر على محمد منذ سمع مقالة قريش، فما كان أحرأه أن يراجع الوحي لساعته! وما كان أحرأه أن يُجري الوحي الصواب على لسانه؟ وإذا فلا أصل لمسألة الغرائق إلا الوضع والاختراع. قامت بها طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للإسلام بعد انقضاء الصدر الأول.

افتراء على التوحيد:

وأعجب ما في جرأة هؤلاء المقتريين أنهم عرضوا للإفتراء في أم مسائل الإسلام جميعاً: في التوحيد! في المسألة التي بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى، والتي لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة، ولا أماله عنها ما عرضت عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكاً عليهم. وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد أتبعه من أهل مكة إلا عدد يسير. وما كان أذى قريش لأصحابه ليضعه يرجع عن دعوة أمره ربه أن يبلغها للناس. فاختيار المقتريين لهذه المسألة التي كانت صلابه محمد ﷺ فيها غاية ما عُرف عنه من الصلابة، يدل على جرأة غير معقولة، وبدل في الوقت نفسه على أن الذين مالوا إلى تصديقهم قد خدعوا فيها لا يجوز أن يُخدع فيه أحد.

لا أصل إذاً لمسألة الغرائق على الإطلاق، ولا صلة البتة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة، إنما عادوا، كما قدّمنا، بعد أن أسلم عمر ونصر الإسلام بمنزل الحمية التي كان يحاربه من قبل بها،

حتى اضطرت قريش لمهادنة المسلمين. وعادوا حين شئت في بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبتها. فلما علمت قريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظم أمر محمد ﷺ بينهم، فأثرت ما تصنع. وقد انتهت بوضع الصحيفة التي قرروا فيها فيما قرروا ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، كما أجمعوا فيها بينهم أن يقتلوا محمداً - ﷺ - إن استطاعوا.